فكرة التصوف عن شخصية محمد رسول الله

للمستشرق
رينولد . نيكولسون

التقينا فى العدد الماضى من مجلة « الاسلام والتصو ف» مع شيخ من شيوخ المستشرقين العلامة ـ نيكولسون ـ وهو يحدثنا عن الشريعة والطريقة والحقيقة .

ونقدم له اليوم بحثا آخر من أجل أبحاثه ، عن فكرة التصوف الاسلامى ، عن شخصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ملخصا عن احدى محاضراته من كتاب (فى التصوف الاسلامى)

قال نيكولسون :

... قد اخترت فكرة الشخصية فى التصوف عنوانا لمحاضراتى هذه ولكنه عنوان يحتاج الى بعض كلمات تفسره قبل البدء فى مناقشته ، لكى يتبين لكم مجال البحث وحدوده ، كما اعتزمت أن أعالجه .

انكم جميعا تعلمون معنى كلمة التصوف ، وانني لا استعملها هنا الا فى المعنى العادى ، أى فى الدلالة على التصوف الاسلامى ، أو على تلك الحياة الدينية الخاصة التى نقرأ وصفها فى أقوال متصوفة المسلمين ومؤلفاتهم ، وربما يعنينا فى هذا الصدد ، أن نشرح الى أى حد تتضمن تلك الحياة ، أو تتضمن « التجربة الصوفية » فكرة الشخصية ، سواء أكانت ، شخصية الصوفى العابد نفسه ، أو شخصية الرسول ، أو شخصية من نعبد وهو الله ..

ولم تجد الحياة الدينية الاسلامية مثالا أعلى فى أى انسان ، الا فى شخصية النبى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فاذا بحثنا فى الصلات التى يعتقد المسلمون ـ وبخاصة الصوفية ـ بوجودها بين الله ورسوله من جهة ، وبين الرسول وأنفسهم من جهة أخرى ، فقد وصلنا الى لب المسألة التى تصدينا لبحثها .

والقرآن يعلن بأن الله هو الحق ، وان ما يدعون من دونه هو الباطل ، وان كل شىء هالك الا وجهه ، وان كل من على الارض فان ، ولا يبقى غير وجه الله ، وان الله نور السموات والارض ، وانه أقرب الى الانسان من حبل الوريد ، وانه ما يكون من نجوى ثلاثة الا وهو رابعهم ، ولا خمسة الا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا وهو معهم .

تلك هى الآيات التى لا تكل السنة الصوفية عن ترديدها لأنهم نظروا الى الله قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، نظرتهم الى المحبوب بالذات ، أما الرسول فقد أحب الله هذا الحب أيضا ، وان امتزج حبه بشىء من الرهبة والخوف من الله ، وقد وصف الله نفسه فى سورة البروج بأنه ـ الودود ـ

كما وصف نفسه فى كثير من الآيات القرآنية الأخرى بأنه يحب المتقين ، ويحب الصابرين ، ويحب المتطهرين .

أما حب الانسان فقد ورد ذكره فى القرآن ثلاث مرات فقط ، تعنينا منها واحدة ، وهو قوله سبحانه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ذلك انها تشير الى المكانة التى وضع فيها القرآن رسول الله من ربه ، والى الوساطة التى بين الله والخلق .

أما الاعتقاد بأزلية الوجود المحمدى فقد ظهر فى عصر مبكر جدا عند الشيعة ، ثم أخذوا به أهل السنة ، وقد أشير اليه فى طائفة من الاحاديث مثل الحديث المشهور : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » أى قبل خلق جسد آدم ، وقد ذكر أتباع هذه النظرية ان أول شىء خلقه الله سبحانه هو الروح المحمدى ، أو النور المحمدى ، الذى ظهر بصورة آدم ثم بصورة كل نبى بعده ، حتى ظهر أخيرا فى صورة النبى محمد نفسه عند أهل السنة .

أما الصوفية فيؤولون النظرية تأويلا خاصا بهم ، فالنور المحمدى عندهم ، هو الروح الالهى الذى نفخ الله منه فى آدم .

فالحقيقة المحمدية ، لا الصورة المحمدية الجسدية ، هى مبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، وهى الواسطة بين الله وعباده ، والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه ، وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية .

وقد تطورت هذه النظرية على يد محيى الدين بن عربى وعبد الكريم الجيلى واتخذت أساسا لبحوث فلسفية بعيدة المدى ، فان محمدا - صلى الله عليه وسلم - فى نظر هذين المؤلفين هو الكلمة الالهية ، أو الانسان الكامل .

والانسان الكامل عندهما ، هو المصدر الذى يستمد منه جميع الانبياء والاولياء علمهم بالله ، كما انه العلة الاولى فى خلق كل ما هو مخلوق والعقل الكلى الذى يصل ما بين الوجود المطلق (الله) وبين عالم الطبيعة وهو ممثل العناية الالهية التى تحفظ على العالم كيانه ، وهو خليفة الله الذى ظهر فى هذا العالم لكى يظهر فيه جلال من أوجده ، ولذلك كان بعض شيوخ الصوفية كلما وقع نظره على شىء جميل ، أو فكر فى شىء جميل يقول : « صلى الله عليك يا رسول الله » .

وقد أشرنا من قبل الى اعتقاد الصوفية فى أزلية النور المحمدى الذى ظهر فى صور جميع الانبياء من آدم الى عيسى ، ثم ظهر أخيرا فى صورة الرسول محمد نفسه ، ولكن ظهوره لم ينته فى نظر الصوفية بموته ، فانهم يعتقدون انه هو الذى لا يزال يظهر فى صور الاولياء الذين يقتبسون من نوره ، ومن هنا كانت الصلة التى تربط أهل التصوف بمحمد - صلى الله عليه وسلم - أقوى وآكد من تلك التى تربط أهل السنة به ، مهما كانت درجتهم من التقوى ، ومهما عظمت محبتهم له ، لأن هؤلاء الاخيرين يعظمونه

ويوقرونه ، ولكن التعظيم والتوقير شيء ، والمحبة شيء آخر ، والمحبة بالمعنى الصوفى .. معناها فناء المحب فى المحبوب .

ومن هذه الناحية يعتبر الصوفية أنفسهم خلفاء النبى والممثلين الشخصيين له فى خلافته عن الله سبحانه ، وهم يعتقدون انه لولا هذه الخلافة الباطنية لخرب العالم وعمته الفوضى ، ولولا وساطتهم لما وصلت رحمة الله الى الخلق ، ولذا كثيرا ما وصفوا أنفسهم بأوصاف هى أليق بالجناب الالهى ، أو بالحقيقة المحمدية ، منها بهم ، وليست لغة هؤلاء القوم لغة الحاد أو غطرسة ولكنها فى الحقيقة لغة أناس أرادوا أن يصفوا الله فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه هويتهم ، أو أرادوا أن يصفوا الروح المحمدى ، فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه حى فعال فيهم .

والاعتراف بفضل النبى - صلى الله عليه وسلم - وأسبقيته أمر معترف به حتى عند أكثر أولياء المسلمين اعتزازا بولايته ، يقول أبو اليزيد البسطامى وقد سئل عن جواز تفضيل الاولياء على الانبياء : « مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام ، كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة ، فتلك القطرة مثل ما لجميع الاولياء ، وما فى الظرف ، مثل ما لنبينا صلى الله عليه وسلم »

ومهما يكن من شيء فقد كانت شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم » مركز الحياة الصوفية فى الاسلام ، فأبو الحسن الخرالى مثلا - وهو أحد متصوفة القرن السابع الهجرى - يذكر ثلاثة أنواع من الايمان بالنبى . أعلاها هو ايمان من أشار اليهم الله سبحانه فى الحديث القدسى بقوله : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » فان هؤلاء يحب بعضهم بعضا ولكن فى الله ، وهم خلفاء الله فى أرضه ، وايمانهم هو اعتقادهم أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما أسرى به الى السماء تلقى من أمر الله ما خفى عن جميع الانبياء والملائكة ، حتى عن جبريل نفسه .. ولم يحظ بما حظى به النبى - عليه السلام - أحد من الارواح العلوية أو الملائكة الكروبيين ، ولذا كان الايمان به مقياسا يقاس به الايمان بالله ، بل ان الايمان به هو الطريق الموصل الى الله ، فمحمد - صلى الله عليه وسلم - بهذا المعنى كما يقول - اندريه - ليس هو الرسول الذى أرسله الله الى الناس ، بل هو الامين الذى استودعه الله خزائن أسراره ، وليس الكتاب الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - الى الناس هو الهدى والفرقان ، بل الهدى والفرقان شخصه وذاته ، وليس الايمان به هو الاعتقاد فى صدق رسالته ، بل هو الصلة الشخصية التى تربطه بالناس ارتباطا صوفيا ، ولهذا اتحد به الأولياء الكاملون عن طريق المحبة والحياة الروحية .

وتذكرنا اللغة التى يعبر بها الصوفية عن حبهم للنبى فى أغلب الاحيان بلغة الاناشيد الدينية التى تدور معانيها حول حب الله ، فالنبى حبيب الله .. وهو لهذا السبب حبيب الصوفية جميعهم ، ولم يكف فى نظرهم تقليده فى أفعاله وأخلاقه ، بل تاقت نفوسهم الى دوام حضورهم معه ، ولذا يراه المريدون فى شتى الصور فى النوم واليقظة .

ورؤيته فى المنام من الامور العادية فى الحياة الصوفية الاسلامية وقد يكون لها أثر بالغ فى تشكيل هذه الحياة فى ظاهرها وباطنها ، وهاكم مثالا يوضح حالة كثيرة الوقوع .

يقول الهجويرى : « ... من المأثور عن الجنيد البغدادى انه كان يرفض الكلام فى التصوف فى حياة أستاذه سرى السقطى ولكنه ذات ليلة ، سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول له فى منامه : ياجنيد تحدث الى الناس فقد جعل الله من كلامك سببا لنجاة كثير من الخلق :

فلما استيقظ خطر فى نفسه انه أفضل من سرى ، لأن النبى أمره أن يعظ الناس ، ولكنه لما أصبح الصباح أرسل سرى الى الجنيد ، أحد مريديه ومعه الرسالة الآتية : انك لم تتحدث الى مريديك عندما ألحوا عليك بالتحدث اليهم ، ورفضت فى ذلك شفاعة شيوخ بغداد ، وتوسلى الخاص ، والآن وقد أمرك النبى - صلى الله عليه وسلم - فلا بد لك من اطاعة أمره . فقال الجنيد : فعلمت ان مرتبة سرى أعلى من مرتبى لانه كان على علم بأسرار نفسى فذهبت اليه وطلبت منه العفو ، وسألته : كيف عرف اننى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام . فقال : اننى رأيت الله فى المنام فأخبرنى انه أرسل اليك رسول الله ليأمرك بالخروج الى الوعظ » .

ويعلق الهجويرى على هذه القصة بقوله : « ان فيها شاهدا على أن المشايخ على علم دائم بالاحوال الباطنية عند مريديهم ... »

البحث مستمر

الاستخارة

من مأثورات البخارى .. قال مطرف بن عبدالله أبو مصعب حدثنا عبد الرحمن بن أبى الموالى عن محمد عن جابر رضى الله عنه قال :

« كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الاوراد كلها كالسورة من القرآن فيقول : « اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين ثم يقول: اللهم انى استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك وأسالك من فضلك العظيم فانك تقـــدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، فأنت علام الغيوب .. اللهم ان كنت تعلم ان هذا الامر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى .. أو قال فى عاجل أمرى وآجله فاقدره لى . وان كنت تعلم ان هذا الامر شر لى فى دينى وعاقبة أمرى ، أو قال فى عاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان . ثم رضنى به ، ويسمى حاجته » .